دُرّةُ الحُفّاظ

١/ ٣/ ١٤٣٦هـ

مخطئ مَن يظنّ أن الانتفاع التام بقراءةِ تراجم الأكابر يحصل بالقراءة العابرة!

إن تاجَ تلكم التراجم: هي التي يجمعُ أصحابُها بين العلم والعمل، وتطبيقِ ثمرة العلم، تلمَس ذلك وأنت تقرأ أخبارَهم، فتهُبّ عليك نسماتُ صِدقهم من خلال تلك الأسطر والورقات، فكيف بمن عاش معهم، أو لقيَهم؟!

ومِن هؤلاء الكبار الذين تستحق تراجمهم أن تُقرأ أكثر من مرة: الحافظُ العالم العامل المحدّث عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي (ت:٦٠١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

لقد عَرف كثيرٌ مِن طلاب العلم هذا الحافظ بـ (عمدته الحديثية) الشهيرة، التي جمع فيها نحوًا من أربع مئة حديثٍ في الأحكام من الصحيحين، وبعضِ أفرادهما، وعرَفوه بحفظه واطّلاعه، وبعضِ

(١) له ترجمة مستوعبة في (ذيل طبقات الحنابلة) لابن رجب (٣/ ١-٥٦) ومنها أفدتُ في هذه الملتقطات من ترجمته.

مصنفاته الســـائرة، لكن ماذا عن الجانب العمَلي في حياته؟ الذي يُترجِم ما كان عليه من علمٍ مُزكّى، يسير فيه على جادّة السلف الذين جمعوا بين العلم والعمل، ولعلي ألخص بعضَ مواقفه تلك في هذه الوقفات:

- دفعُ العُجب: بلغ الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ منزلـــةً عليّة في الحفظ، وله في ذلك قصص كثيرة، وهذا قدْر يشـــترك معه فيه بعضُ العلماء ممن ســـبَقه، ولحقه، إلا أن الموقف الذي يُترجِم الجانبَ العملي عنده، أنه قيل له: لِمَ لا تقرأ الأحاديثَ من غير كتاب؟ فَقَالَ: إنني أخاف العُجْب!

- اســـتفيدوا من غيري: قال أحدُ مترجميه: «إذ صار عنده طالبٌ يَفهم شَيْئًا؛ أمره بالسفر إِلَى المشايخ بالبلاد»، وبعضُ الناس اليوم إذا بلغ في العلم منزلةً قد يتضايق مـــن ذهاب بعض تلاميذه لغيره! وهذا ليس مـــن النصح في شيء -خاصةً إذا ذهب الطالـــبُ ليتلقى علمًا لا يتقنه شيخُه الذي انتقل عنه-.

- مجالسُ تليّن القلـــوب: عُرف الحافظُ بقرب دمعتـــه، وكثرة بكائه في مجالس الحديث، وكان له -إبان إقامة درســـه بعد الجمعة في دمشق- مجالسُ يغشـــاها خلْقٌ كثيرٌ، وكان إذا قرأ الحديثَ بكى، وأبكى، فمن حضر هذه المجالس لا يكاد يفارقها؛ لكثرة ما يحصل له من لين قلبه.

ولما دخل مصر -بعد أن أُخرج من دمشق- عقد مجالسَه الحديثية فيها، فكان النَّـــاسُ يبكون حَتَّى غُشي على بَعْضهم، حتى قال بعضُ المصريين: مَا كنا إلا مثل الأموات حَتَّى جاء الحافظ، فأخرجنا من القبور!

ما أحوج الناس وطلاب العلم إلى هذه الســكينة التي تغشــى هذه المجالس، ويخرج منها أهلُها وقد لانت قلوبُهم!

ولقد تذكرتُ -وأنا أقرأ هذه المواقف- مجالسَ حضرتُها، وســمعتُ أضعافها -مما لم أحضره- لشــيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز- رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ كانت دموعُه تســيل من تأثره بآية، أو تعليقه عــلى حديثٍ من أحاديث رســول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كانت تلك الدموع تليّن قسوةً في القلوب، ويستشعر معها الجالسُ في الدرس شــيئًا من معاني السكينة التي تغشى تلك المجالس! ومَن ينسى بكاءه عند سماعه لحادثة الإفك؟ أو قصة بيعة العقبة؟ أو توبة كعب وصاحبيه؟!

لا أدري لمَ ربط بعضُ أهل العلم بين قوة الدروس العلمية وخلّوها مما يليّن القلب، ويستدر الدمع؟! آلجفافُ علامةٌ على قوة الدرس علميًّا؟!

مِن المؤكّد أن الدروسَ ليســت على درجة واحدة من حيث طبيعتها، ولا الشــيوخَ في منزلة واحدة، لكن خلوّ دروس الشيخ التي تبلغ المئات من أمثال هذه المعاني؛ شيء محزن!

- الحفاظ على رأس المال: مما اشــتهر به الحافــظ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعُرف عنه: «حفاظه الشديد على وقته، فلا يكاد يضيّع شيئًا من زمانه بلا فائدة»، وفي عصرنا تجدّدت على طالب العلم مشــتّتاتُ الوقت، ومضيّعاتُ الزمن، فما أحراه أن يتضرع لربه، ويســأله الإعانةَ على اغتنام الوقت، والسلامةَ من انفراط زمانه بلا فائدة!
- الاســتمرار في تلقين القــرآن للعامّة: وهذا مــن أعاجيب ما ذُكر في

ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنه لم يترك ذلك مع بلوغه في الإمامة في الدين شـأوًا عظيمًا، تحمِل مثلَه على الانشـغال بأمور أخـرى، بحيث يتولى هذه المهمة -مهمة التلقين- من هم في طبقة تلاميذه.

بعضُ شـبابنا -وفقّهم الله- ممن هم متأهلون لتعليم القرآن وتلقينه، وليست لديه موانع تسـتحق التأخر عن هذا الشرف، إذا عُرض عليهم التدريس في حلقات التحفيظ؛ يبدون أعذارًا كثيرة، بعضُها لا يقوم على ساق، أفليس لهم في هؤلاء الأكابر قدوة؟!

- مشـاركة العامَّة همومَهم ومصائبَهم: فإنه حين كان بمصر، وقع فيها غلاء، فكان يُؤثِر بعشائه ليالِيَ عدة ويَطوي[1].

ومثل هذه المواقف تؤثّر في العامّة، وتزيد من رصيد العالم في نفوسهم أكثر من دروسه ومواعظه المجرّدة من التطبيق.

- احتسابه على المنكرات: يقول مترجمو الحافظ: «وكان لا يرى منكرًا إلا غيَّره بيده أو لسانه، وكان لا تأخذه في الله لومةُ لائم»، وتلك -لعمر الله- مِـن زينة العالم؛ أن يُرى محتسِـبًا، يُترجـم غيرتَه على محارم الله بالإنكار بحسب القُدرة والاسـتطاعة، وبما يحقِّق المقصودَ الشرعيَّ.

وإن العامّـة لا يزالون يحفَظون للعالم قَدرَه ومكانتَه في قلوبهم؛ ما دام معروفًا بينهم بالاحتسـاب والإنكار، وألا يَقصُر دعوتَه على أحد طرفي النجاة: (الأمر بالمعروف) فحسـب، بل يجمع بينهـما، ويجتهد في تحقيق المصالح الشرعية في أمره ونهيه.

---

(١) الطَّيَانُ: الطَّاوِي الْبَطْنَ. وَيُقَالُ طُوِيَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا جَاعَ، وَضَمُرَ صَارَ كَالشَّيْءِ الَّذِي لَوِ ابْتُغِيَ طَيُّهُ لَأَمْكَنَ. فَإِنْ تَعَمَّدَ لِلْجُوعِ قَالَ: طَوَى يَطْوِي طَيًّا. مقاييس اللغة (٣/ ٤٢٩).

■ وصية مجرّب: ولتكن آخر الوقفات مع ســيرة هــذا العلم الماجد[1]، هذه الوصية التــي صدرت عن تجربة وذوق، وهــي وصيّة تُعرَض مضامينُها لكثير مــن أهل العلم، حيث يقول: «إن مَن رزقه الله خيرًا مِن عملٍ أو نورِ قلب، أو حالــةٍ مَرْضيَّة في جوارحه وبدنه؛ فليحمد الله عليها، وليجتهد في تقييدها بكمالها، وشكر الله عليها، والحذر من زوالها بزلة أو عثرة.

ومن فقَدَها فليكثر من الاسترجاع، ويفزع إلى الاستغفار والاستقالة، والحزن عــلى ما فاته، والتضرع إلى ربه، والرغبة إليه في عَودها إليها، فإن عادتْ وإلا إليه ثوابها وفضلها إن شاء الله تعالى».

رحم الله الحافظ عبدالغني، وأكثَرَ في علماء المسلمين من أمثاله، وجمعنا به في دار كرامته.

❋

(١) الماجِدُ: الحَسَنُ الخُلُقِ، السَّمْحُ. القاموس (ص٣١٨).